التراتبية الاجتماعية في مدينة الجزائر العثمانية من خلال المصادر الأوربية

Social stratification in ottoman Algiers through European sources

حميد آيت حبوش

جامعة أحمد بن بلة وهران1

Hamidaithabouche@yahoo.

تاريخ الاستلام: 14/../2026/01 تاريخ القبول: .27./.2026/01 تاريخ النشر: 2026/07/21

الملخص

يتناول المقال فئات سكان مدينة الجزائر كما صورتها المصادر الغربية، إذ أن الرحالة والقناصل الأوروبيين صنفوا المجتمع الجزائري وفق معايير عرقية وإثنية أكثر منها اجتماعية، فقسموه إلى فئات متعددة أبرزها: الأتراك، الكراغلة، الحضر، البرانية، الزنوج، والدخلاء من يهود ومسيحيين. ويبرز المقال أن الأتراك العثمانيين احتلوا قمة الهرم الاجتماعي والسياسي بحكم سيطرتهم على مؤسسات الحكم والجيش، في حين حظي الأعلاج بمكانة معتبرة داخل البحرية والإدارة. كما تناول نشأة الكراغلة، أبناء الأتراك العثمانيين والجزائريات، ودورهم العسكري والإداري، مع استمرار تنافسهم على الامتيازات السياسية. وأوضح أن الحضر، الذين ضموا العرب والأمازيغ والأندلسيين المستقرين بالمدن، مثلوا النخبة المدنية وأسهموا في النشاط الاقتصادي والعمراني والثقافي. في المقابل، شكل البرانية فئة المهاجرين من

الأرياف والصحراء الذين وفدوا إلى المدن طلبًا للعمل، بينما ظل الزنوج يشكلون نسبة محدودة، وتميزت أوضاعهم بمرونة أكبر مقارنة بالرق في أوروبا. كما ناقش المقال أوضاع اليهود ودورهم الاقتصادي البارز، إلى جانب الأسرى المسيحيين والمسيحيين الأحرار الذين ارتبط وجودهم بالعلاقات البحرية والتجارية بين الجزائر وأوروبا. ويخلص المقال إلى أن المجتمع الحضري في الجزائر العثمانية كان مجتمعًا متنوعًا ومتعدد الأصول، وأن الصورة التي قدمتها المصادر الأوروبية تعكس في كثير من الأحيان تصورات أصحابها وخلفياتهم الفكرية أكثر مما تعكس الواقع الاجتماعي، مما يستوجب التعامل معها بمنهج نقدي ومقارنتها بالمصادر المحلية للوصول إلى فهم أكثر دقة للتركيبة الاجتماعية لمدينة الجزائر العثمانية.

الكلمات المفتاحية

المجتمع ، الطبقات ، السكان ، الجزائر، الاتراك العثمانيون

Abstract

This article examines the categories of the inhabitants of the City of Algiers as portrayed in Western sources, It demonstrates that European travelers and consuls classified Algerian society primarily on ethnic and racial grounds rather than on social criteria, dividing it into several groups, including the Ottomans, Kouloughlis, urban dwellers (Hadar), Barranis, Black Africans, and outsiders such as Jews and Christians. The study shows that the Ottoman Turks occupied the highest position in the social and political hierarchy due to their control over the government and military institutions, while the *Renegades* (*ʿUlūj*) also enjoyed a prominent status within the navy and the

administrative apparatus. It further explores the emergence of the Kouloughlis, the offspring of Ottoman fathers and Algerian mothers, highlighting their military and administrative roles as well as their continuous struggle for political privileges. The article also discusses the urban population, composed of Arabs, Amazighs, and Andalusian refugees settled in the cities, who formed the urban elite and contributed significantly to the economic, urban, and cultural development of Ottoman Algeria. In contrast, the Barranis represented migrants from rural and desert regions seeking employment in urban centers, whereas Black Africans constituted a relatively small segment of society and generally experienced a more flexible form of servitude than that prevailing in contemporary Europe. The study also examines the Jewish community and its prominent economic role, in addition to Christian captives and free Christians, whose presence reflected the maritime and commercial relations between Algeria and Europe. The article concludes that urban society in Ottoman Algiers was highly diverse and multi-ethnic, and that the image presented by European sources often reflected the perceptions and intellectual biases of their authors more than the historical reality itself. Consequently, these sources should be approached critically and systematically compared with local sources to achieve a more accurate understanding of the social structure of Ottoman Algiers

Keywords

Society , Classes , Inhabitants , Algeria , **Ottoman Turks**

.

مقدمة

تُعدّ دراسة البنية الاجتماعية للمجتمعات التاريخية من أهم المواضيع لفهم طبيعة التنظيم السياسي والاقتصادي والثقافي الذي سادها، إذ تعكس التراتبية الاجتماعية العلاقات القائمة بين مختلف الفئات والشرائح، وتبرز مكانة كل منها داخل النسق العام للمجتمع. وقد حظيت مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1516–1830م) بمكانة متميزة في حوض البحر الأبيض المتوسط، باعتبارها عاصمة إيالة الجزائر ومركزًا سياسيًا وعسكريًا وتجاريًا استقطب جماعات سكانية متعددة الأعراق والأصول والانتماءات الدينية والاجتماعية، مما أفرز مجتمعًا حضريًا متنوعًا اتسم بتعدد مكوناته واختلاف وظائفها وأدوارها.

وتُعدّ المصادر الأوروبية، ولا سيما كتابات الرحالة والقناصل والأسرى والمبشرين والتجار، من أهم الشهادات التي تناولت التركيبة الاجتماعية لمدينة الجزائر، حيث قدمت أوصافًا تفصيلية لفئات المجتمع، وإن كانت هذه الأوصاف لا تخلو من أحكام مسبقة وتأثيرات الخلفيات السياسية والدينية والثقافية لمؤلفيها. ومن ثم، فإن التعامل مع هذه المصادر يقتضي إخضاعها للمنهج النقدي

ومقارنتها بالمصادر المحلية لاستخلاص صورة أكثر موضوعية عن المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني.

وفي هذا الإطار، يهدف هذا المقال إلى دراسة التراتبية الاجتماعية في مدينة الجزائر العثمانية من خلال المصادر الأوروبية، مع إبراز أهم الفئات التي تكوّن منها المجتمع الحضري، ومكانة كل فئة داخل السلم الاجتماعي، وتحليل الكيفية التي صوّر بها الأوروبيون هذه البنية الاجتماعية، ومدى توافق تلك التصورات مع الواقع التاريخي، بما يسهم في تعميق فهم المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني وإبراز خصوصياته الاجتماعية والحضارية.

لقد قام الأوربيون في دراستهم بتقسيم المجتمع الجزائري، خلال العهد العثماني إلى عدة عناصر، مركّزين في ذلك على عنصر أصل السكان فقسّمه بعضهم إلى سبع عناصر هي: الأتراك العثمانيين ، الكراغلة، العرب، الأمازيغ، الأندلسيون، اليهود والسود[1].
إن هذه التقسيمات الواردة في الدراسات الأوربية، فتحت المجال للتساؤل، هل هناك دولة في العالم تضمّ مجتمعاً من عرق واحد. فإذا قمنا بدراسة البنية أو التقسيم السكاني لأية دولة، فإننا نلاحظ أنها تضم مزيج من الأجناس والأعراق، وقد يكون الاختلاف في مدى انسجام سكانها.

والمجتمع الجزائري، بالرغم من تنوع عناصره السكّانية فإنّه كان يتميز بالانسجام والترابط [2].

وفي هذا الصدد قال " وليام شالر " عن سكان المدن الجزائرية أنّهم " عبارة عن خليط من العرب والبربر وبقايا الأجناس، التي غزت البلاد عبر العصور، والمهاجرين من الأندلس، والأتراك" [3].

نلاحظ أن هذا الرأي عن أصل سكان الجزائر، لا يختلف عن آراء الأوربيين وكلّهم كانوا يعتقدون أن بعض الفئات السكانية للمجتمع الجزائري، كانت من بقايا الرومان والوندال والبيزنطيين، وفي الحقيقة أن أقوالهم لم تستند إلى مصادر مادية أو كتابية، بل اكتفوا بتصنيف السكان من خلال ملامحهم الخارجية مثل الشعر الأشقر، والعيون الزرق وطول القامة [4] وبقي هذا الرأي راسخاً عند الأوربيين الذين جاءوا إلى الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي، وحسب اعتقادي أن التنوع الذي عرفه المجتمع الجزائري والذي أدخل عليه بعض المواصفات الأوربية، فكان عن طريق الأندلسيين، والأتراك العثمانيين، والأعلاج الذين احتكوا بالعنصر الجزائري ، العرب والأمازيغ. لذلك يمكن تقسيم المجتمع الجزائري في العهد العثماني إلى قسمين أساسيين، هما: سكان المدينة الذين تتراوح نسبتهم ما بين 5 و10% [5] وسكان الريف الذين يمثّلون الأغلبية الساحقة [6]، وكل قسم من القسمين، يتألف من جماعات تتباين

حالة كل واحدة عن الأخرى، من حيث العدد، والمكانة الاجتماعية، وتأتي على رأس الهرم الاجتماعي في المدن، جماعة الأتراك العثمانيين، التي تتحكم في السلطة السياسية، والعسكرية، في حين قبائل المخزن وبعض الأسر القوية تحتل الصدارة في الأرياف ومهما بلغت أهمية المكانة الاجتماعية التي كانت تتمتع بها بعض الجماعات، فإن المجتمع الجزائري، كان خالياً من الطبقية، بالمفهوم الذي كان شائعا في المجتمع الأوربي في العصور الوسطى.

- **سكان مدينة الجزائر:** يمكن تقسيمهم إلى مجموعات سكانية أو طوائف تتميز كل مجموعة عن الأخرى في وضعها الاجتماعي ودورها الاقتصادي وعلاقتها بالسلطة.

1: الأتراك العثمانيون:

تحتل هذه المجموعة قمة الهرم الاجتماعي، تنقسم إلى فئتين، الفئة الأولى يمثلها الأتراك والعثمانيين، الذين توافدوا من الأناضول[7] والروملي[8]، وأفراد هذه الفئة لا ينتمون كلّهم إلى الفرق الإنكشارية بل هناك من كان ينشط في الحرف، وأعمالا أخرى [9].

أما الفئة الثانية، تتكون من الأوربيين الذين كانوا يندمجون بفئة الأتراك العثمانيين، بعد اعتناق الإسلام، يطلق عليهم بالأعلاج، وتنحدر أصولهم من بلدان أوربا، ولاسيما الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وقد إعتبر هؤلاء الأعلاج الجزائر وطنا لهم

لتحسين أوضاعهم المادية، وتحقيق أهدافهم [10]. وارتفع عددهم في القرن 17م، نظرا للتطور الذي شهده الأسطول البحري الجزائري. ومنذ النصف الأول من القرن 16م، أصبح الأعلاج يشكّلون أغلبية رجال البحرية الجزائرية[11]

ونفوذ الاعلاج لم ينحصر على مستوى البحرية والسلطة المركزية " هايدو "، فقد سيطر هؤلاء الأعلاج على القياد في نفس الفترة بل تجاوزوا فئة الأتراك، بحيث هناك 11 قايداً من الأعلاج و 8 من الأتراك العثمانيين و2 من العرب و1 من الكراغلة.[12]

وفي الفترة الممتدة من 1535 إلى 1586 تعاقب ستة عشرة حاكماً، سبعة منهم أتراك، وسبعة أعلاج[13]

ولقد قارن: " فانتور دي بارادي"، في عهد الدايات بين الفرص الممنوحة للكراغلة وتلك الممنوحة للأعلاج فقال: " إن الأعلاج لهم طموح الوصول أكثر من الكراغلة، لكن لا يترك لهم مجال للوصول إلى الحكم وإلى أي مناصب سامية أخرى، وهناك آغوات من الأعلاج لا يتقنون اللغة العربية والتركية معاً ... ولقد منح الأعلاج فرصا للترقية ، فقد تولّى بعضهم منصب الكاهية وآغا القمرين ووكيل الخرج، بينما لم يسمح لهم باعتلاء منصبي الخزناجي والداي ... ".[14]

وقد ارتفع عدد الأتراك العثمانيين في القرن 17م، حيث تجاوز عددهم عشرين ألف نسمة [15]، ويعود أسباب ارتفاعهم إلى استمرار عملية التجنيد من الولايات العثمانية بالمشرق العربي وهذا كلّما

كانت الجزائر بحاجة إلى جنود، أرسلت بعثات إلى الوكلاء في مختلف الموانئ المشرقية لنفس الغرض [16].

ومنذ أواخر القرن 18م إلى نهاية الوجود العثماني في الجزائر، بدأ عدد الأتراك العثمانيين في انخفاض مستمر، والسبب الرئيسي يعود إلى قلة المجندين من المشرق [17]. ومن الأسباب الأخرى التي أدّت إلى تقلّص عدد الأتراك العثمانيين، انتشار الحروب الداخلية، كثرة الأوبئة والكوارث الطبيعية، ولقد استمر عدد الأتراك العثمانيين في التقلص، حتى أصبح في عام 1830 لا يتجاوز أربعة آلاف نسمة.

أما عن أخلاقهم و طباعهم، قال " شالر " عنهم ما يلي: " والأتراك العثمانيون بسطاء، حذرون ... ولهم نفس الصفات التي نجدها في دولتهم شبه المتحضرة .. كما أنهم يتميزون بالأدب واللياقة والإنسانية في معاملاتهم اليومية، ولكن حين يجدون أنسفهم في الحياة السياسية يكتشفون في أنفسهم وحشية " [18].

بينما " حمدان خوجة " يصف الأتراك العثمانيين بما يلي: " يظهرون كحماة الدين، ويبتعدون عن القيام بكل ما هو منافي للقوانين، وملتزمون بالقانون ، ويقيمون الصلاة بانتظام مما جعل البربر والعرب يظهرون أنهم مرابطون " [19].

أما لباسهم، لقد ذكر " دانتو " " Dentu " أنه يشبه لباس سكان الأتراك [20] ، أما " لوجي دي تاسي " فقال أن لباسهم متواضع

يتميز عن لباس السكان المحليين من العرب والبربر، واكتفى بوصف لباس الداي وموظفيه السامين الذين يلبسون قمصان شفافة بأكمام طويلة وسراويل طويلة غير خشنة، أو قطنية بيضاء [21].

2- الكراغلة [22]:

نشأت هذه الفئة بزواج أفراد الجيش التركي بنساء الجزائر، وظهرت لأول مرة في مدن تلمسان، معسكر، مستغانم، قلعة بني راشد، مازونة، مليانة، المدية والقليعة وبسكرة وقسنطينة وعنابة [23].

و أصبح الكراغلة كفئة مستقلة ومتميزة وقوية، تنافس الأتراك العثمانيين في الامتيازات منذ سنة 1596 [24]

تختلف الإحصائيات حول عدد الكراغلة في مدينة الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي، بلغ عددهم 15 ألف نسمة في حين يقدرهم شالر في سنة 1825 بـ 20 ألف نسمة، أم فانتور دي بارادي فيقدرهم سنة 1754م بـ10 ألف نسمة[25]

وفي إحدى الدراسات التي أعدّها " مارسيل إميريت " واعتمد فيها على تقارير الضباط الفرنسيين، خلال السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي، أن الكراغلة في بايلك الغرب، كانوا موزعين في المدن الآتية: 500 جندي في تلمسان، 504 في مستغانم، و500في مازونة،

و80عائلة بقلعة بني راشد [26]. وتضم المدية عدد كبير منهم، أما في مدينة الجزائر فإن عددهم كان ضئيلاً، إلا أنهم كانوا يمثلون القسم الأكبر من سكان مدينتي القليعة والبليدة، و كانت قبيلة وادي الزيتون لوحدها، باستطاعتها تسليح ثمانية آلاف محارب في فترة الحرب، وفي بايلك قسنطينة كان الكراغلة يقيمون في الحاميات العسكرية مثل تبسة، زمورة وعنابة، وتعدّ حامية ميلة من أكبر الحاميات في البايلك[27].

3- الحضر:

تتكون هذه المجموعة من العائلات الحضرية المتأصلة بالبلاد التي ولدت وترعرعت في المدن، وهذه الجماعة تتكون من العرب والأمازيغ، وتتكون أيضاً من مهاجري الأندلس الذين استمروا في التوافد على المدن الجزائرية وخاصة على مدينة الجزائر وما جاورها طوال القرن 16م وبداية القرن 17م.

ومن الخطأ الشائع إطلاق إسم الحضر على مهاجري الأندلس فقط تبعاً لوصف الأوربيين لهم بـ " Maures " وأشمل وصف لهم هو سكان المدن بما في ذلك سكان المدن الأصليون والمهاجرون الأندلسيون، ويشمل كل من استوطن المدن من أهل البادية وتمدن بعد أن كان بدوياً [28].

ولقد كان الأندلسيون يشكلون إحدى الفئات الاجتماعية في كثير من المدن الجزائرية، وقد ساهم بعضهم في إحياء وتأسيس

بعض المدن الجزائرية مثل تنس ووهران [29]. كما احتضنت المدن الجزائرية الأخرى، وخاصة الساحلية عدداً كبيراً من الأندلسيين.

واختيارهم الهجرة إلى الجزائر ورغبتهم في البقاء هنا يعود أساساً إلى وجود القوة العثمانية بها، مما جعلهم أكثر أمناً واستقرارا وأشارت بعض المصادر أن خير الدين [30] جهّز ستة وثلاثين مركبة والتي قامت بست رحلات إلى الشواطئ الإسبانية، نقلت خلالها سبعين ألف أندلسي، وتكررت بعد ذلك عمليات الإنقاذ [31].

أما عن لباسهم، أشار شالر أنه " يتألف من عدة قطع، بعضها بأكمام و أخرى بدون أكمام، مفتوح في الصدر، ومزين بأزرار وزخارف ، وسرواله فضفاض ينزل حتى الساق، ويعلق على حزامه الذي يلفه عدة مرات حول وسطه مسدساً، يضع في طياته أيضاً ساعته ومحفظة نقوده، ويغطي رأسه بعمامة وينتعل بلغة، وتختلف نوعية الملابس من رجل حضري إلى آخر باختلاف درجاتهم المادية " [32].

وكتب " هاينرتيش" عن الهندام الحضري الجزائري قائلاً: " ويتألف لباسهم من غليلة مصنوعة من الكتان أو النسيج، وبدعيتين متشابهتين و سروال واسع قصير.. ثم حزام غالبا ما يظهر فخامة ثيلبهم، و حذاء واسع ما يظهر فخامة ثيلبهم، وبالتالي حذاء واسع مستدير الرأس يشبه النعل ..." [33].

4- المجموعة البرانية:

هي الفئة السكانية التي هاجرت إلى المدن الكبرى كالجزائر وقسنطينة وتلمسان وغيرها، وانتعاش المدن الجزائرية في الجوانب المختلفة خاصة في الجانب الاقتصادي والعمراني، هو الذي أدى إلى انتشار ظاهرة النزوح الريفي نحو المدن، بحثاً عن العمل والإرتزاق، ونتج عن ذلك، ظهور هذه المجموعة السكانية الجديدة في المدن قادمة من المناطق الريفية والصحراوية، والتي اصطلحت المصادر على تسميتها بالبرانية [34].

ويعود أصل أفراد المجموعة البرانية إلى قبائل جرجرة وبني عباس، جيجل، بسكرة، بني ميزاب، والأغواط ... كانوا يتوافدون على المدن الجزائرية الرئيسية، مثل مدينة الجزائر، قسنطينة، تلمسان والمدية، قصد الحصول على عمل معين في الورشات، والقطاعات الاقتصادية، أو عند العائلات الحضرية والقنصليات الأجنبية[35]، ومجموعة كبيرة منهم اتخذوا مدينة الجزائر قبلة لهم، ولقد انضم بعض أفراد قبائل جرجرة إلى الفرقة الإنكشارية وشاركوا في عدة حروب، كما ساهموا في جمع الضرائب من الأرياف وكان كل واحد منهم يتقاضى زيانياً واحداً مقابل جهده[36] وأصبحوا يشكلون فرقة الزواوة [37].

ومن بين المجموعات البرانية التي توافدت إلى مدينة الجزائر نذكر:

أ- **الميزابيون:** ينتسبون إلى قبائل بربرية الأصل، تسمى قبائل زناتة التي تسكن في الواحات الواقعة بين الأغواط وتوات على حدود

الصحراء الجزائرية، دينها الإسلام ومنهجها إباضي، يسميه الجزائريون بالمذهب الخامس وهم في نظر الأتراك العثمانيين خوارج، وقال عنه" هاينريتش أنه مذهب الوهابين في الجزيرة العربية" [38].

كان الميزابيون يعيشون في منطقة طرد بشري، حيث كانت تنهب قوافلهم بسبب إباظيتهم، ومنطقتهم فقيرة اقتصاديا، وهذا ما دفع بالكثير من الرجال إلى الاغتراب عن منطقتهم بعيداً عن أهليهم وذويهم قاصدين مدن تجارية في التل الصحراء، بحثاً عن العمل والربح المادي[39]

وكان بنو ميزاب يشغلون في الحمامات، وبيع اللحوم، وطحن الحبوب، وفي المخبزات، كما يمارسون كذلك دور الوكلاء المعترف بهم، والوسطاء التجاريين، بين المدينة والصحراء [40].

وبالرغم من الدور الاقتصادي لجماعة الميزابيين بمدينة الجزائر إلا أنها لم تندمج في المجتمع الحضري بحيث ظلت مهمشة بداخله، معتقداتها الإباضية وممارستها الدينية التي تختلف عن المالكيين والأحناف، كانت من بين أسباب انكماش الميزابيين على أنفسهم [41].

ب- البساكرة:

ينتسبون إلى واحة بسكرة بالجنوب الشرقي الجزائري، واستمدوا اسمهم منها، وهو يمثلون القبائل العربية الصحراوية في المدن التي ينتقلون إليها بحثاً عن العمل [42].

وكوّن البساكرة في مدينة الجزائر، جماعة نشيطة، وقد قال عنهم " شالر ": " وكثيراً ما يستخدمون في المنازل، حيث يتمتعون بالثقة، والبسكريون يحتكرون صناعة الخبز، وهو الذين يحملون الخبز في الجزائر، وهم وحدهم الذين تستخدمهم الحكومة في إنجاز الأشغال العمومية، والبسكريون أيضاً هم الذين يعملون وسطاء في التجارة بين مدينة الجزائر وغدامس، .. ويعهد إليهم أيضاً مراقبة الشوارع والأبواب الداخلية في الليل[43]

د- الجيجليون:

حظيت الجماعة الجيجلية بمكانة اجتماعية محترمة، وسبب هذه الخطوة، حسب الروايات التاريخية، أن عناصر جيجيلية رافقت عروج وخير الدين إلى مدينة الجزائر، لما استنجد بهم أعيان مدينة الجزائر وعلى رأسهم سليم التومي.

وقد وضع" فونتور دي بارادي " حضوة الجيجليين بمنزلة الحظوة التركية إذ هم دون سواهم من العناصر البرانية لهم حق حمل السلاح وارتداء الملابس المزركشة والمطرزة بخيوط الذهب على الطريقة التركية [44].

لقد مارس الجيجليون بمدينة الجزائر، صناعة الحرارة، الدباغة كما مارسوا التجارة، وتحكموا في أفران الخبز التابعة للجيش الإنكشاري، وكما شاركوا حتى في الغزو البحري [45].

أما المجموعة الثانية من فئة البرانية، التي ظهرت في مدينة الجزائر، فكانت تضم العناصر العربية، القادمة من مختلف المناطق والتي نصبت خيامها بضواحي المدينة، وهناك من شيد
أكواخاً بجوار المنازل الواقعة بباب عزون، في الجهة الشرقية من المدينة [46].

5- الزنوج أو العبيد:

لا يمثلون سوى نسبة ضئيلة، وهم في الأصل من العبيد الذين اشتراهم أسيادهم داخل القارة من السودان وطرابلس خاصة، والتحقوا بالجزائر عبر المراحل المختلفة، كانت القوافل التجارية العائدة من السودان تجلب معها عدداً معتبراً من العبيد [47].
ولقد عرفت هذه التجارة رواجاً بعد أن ألحقت الجزائر بالدولة العثمانية، ويذكر " شالر " أن حالتهم لم تكن تشبه حالة العبيد في أوربا فهم يقدمون خدمات مقابل الرعاية أكثر منه إلى العبودية ويذكر: " ... والزنوج يشكلون جزء من السكان، ولو أنهم أقلية، فهؤلاء في الأصل من العبيد الذين اشتراهم أسيادهم ، ولكنهم سرعان ما يحصلون على حريتهم باعتناقهم الإسلام، وهو عمل قلّما يتأخر أحدهم عنه، والمعروف أن الرقيق هو أقرب أن يكون نوعاً من العمل في مقابل العناية والحماية منه إلى العبودية " [48].

ونفس الكلام يذكره " بوايي عن أحوال العبيد، الشيء الذي يدفع الكثير منهم إلى البقاء في خدمة العائلات المالكة لهم ولا يغادرون مدنهم حتى أن يحصلوا على حرياتهم، وهو الأمر الذي كثيراً ما يحدث بل ويصبحون أفراد من هذه العائلات [49] ، وإن كان "بوايي" يجعل لذلك أسباباً وتفسيرات مختلفة إلا أنه لم يقدّم أدلّة وبالتالي فهي مجرد تخمينات. والمصادر التي تناولت الزنوج لم تحدد عددهم الإجمالي، ولكن توافدهم إلى مدينة الجزائر يتراوح سنويا ما بين مائة وخمسين وخمسمائة عبد [50]، وهناك عدد منهم في بعض المدن الجزائرية الأخرى مثل تلمسان، البليدة، المدية، وهران، قسنطينة، توقرت وورقلة [51]

6- الدخلاء:

تتميز هذه المجموعة عن باقي سكان المدينة لأسباب دينية وحضارية فهي لذلك تعتبر دخيلة عن المجتمع الجزائري، وهي أحسن حالاً من جماعة البرانية، وتضم هذه المجموعة، اليهود، الأسرى المسيحيين، والمسيحيين الأحرار.

اليهود: كانوا يشكلون العنصر الأهم من بين الدخلاء من حيث قدم وجودهم في البلاد ومن حيث دورهم الإقتصادي، حيث يعود الوجود اليهودي في الجزائر إلى ما قبل التوسع الروماني، حيث عرف عددهم تزايداً ابتداءاً من القرن 13م، بنزوح عدد كبير منهم من جزر البليار، وإيطاليا و أوربا الشمالية، وفرنسا وانجلترا، وثم ارتفع

عددهم أكثر بالتحاق يهود إسبانيا، بعد سقوط غرناطة في عام 1492م [52]. ومنذ مطلع القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر، ارتفع عدد سكان اليهود في مدينة الجزائر أربعة أضعاف ما كانت عليه إبّان دخول الأتراك العثمانيين، وهذا يرجع أساساً إلى الهجرات اليهودية المتتالية التي أتت من أوربا ولاسيما من مدينة ليفورن الإيطالية، لأن هذه الفترة تتوافق والفترة الذهبية التي شهدتها الجزائر في المجال الاقتصادي، وهكذا من الطبيعي أن نشهد الجزائر قدوم اعداد كبيرة من التجار اليهود من أوربا [53]. كما احتضنت عدة مدن جزائرية مثل قسنطينة، وهران، المدية وبوسعادة عدداً من الأسر اليهودية وهناك بعض العائلات المنتشرة في المناطق الريفية والصحراوية، إلا أن الأغلبية كانت تقيم في المدن، لأن قوانين البلاد لم تكن تسمح لليهود بامتلاك الأراضي، فلهذا كان معظمهم يمارسون التجارة والحرف [54]، ولقد كان اليهود يتمتعون بحرية تامة في ممارستهم لعقائدهم الدينية، وفي التنقل والإقامة حيث يرغبون، وبممارسة المهنة التي يرونها في حدود القانون في جميع أنحاء المملكة [55].

أما عن العدد الإجمالي لليهود، فإنه من الصعب أن تفدم رقما محدداً لأن معظم المصادر ركزت بصفة خاصة على اليهود المقيمين في المدن الرئيسية، ولا سيما مدينة الجزائر، وأهملت المناطق الداخلية.

ومنذ مطلع القرن 19م عرف عدد اليهود تراجعاً، نتيجة وباء الطاعون الذي اجتاح البلاد، وذكر " فونتور دي بارادي " أن عدد اليهود الذين ذهبوا ضحية الوباء في مدينة الجزائر قدر بألف وسبعمائة وأربعة وسبعين ضحية [56]، كما أن عدداً من العائلات اليهودية غادرت الجزائر إلى مدينة ليفورن خاصة، بعد الاضطرابات التي عرفتها البلاد في عام 1805، والتي أسفرت عن مقتل الداي مصطفى وممثل اليهود بوشناق، غير أنه ومع نهاية العهد العثماني عرفت الأقلية اليهودية وضعاً صعبا جعل " شالر" يعتبر الطائفة اليهودية في الجزائر واحدة من الطوائف اليهودية الأقل حظوظاً وثروة في العالم [57].

الأسرى المسيحيون: يمثلون الجزء الأكبر من المسيحيين الموجودين في الجزائر، وقعوا أسرى حين انهزام جيوشهم وتحملهم سفن البحرية الجزائرية، وأصولهم من الدول الأوربية وأمريكا.

ولقد كان عدد الأسرى غير مستقر، فهو يختلف من فترة لأخرى، حيث كانت تتحكم فيه طبيعة علاقات الجزائر بالدول الأوربية، ومدى تفوق الأسطول الجزائري في عرض البحر. وقد وصل عدد الأسرى في القرن 16م حسب " هايدو " إلى خمسة وعشرين ألف أسير [58].

وفي القرن 17م فقدّرهم " قراماي " بخمسة وثلاثين ألف أسير [59]، ويعود هذا الإرتفاع إلى تزايد الغزو البحري للجزائريين في تلك الفترة.

وأضاف " قراماي " يقول أن الجزائريين أسّروا ما بين وماي و26 أكتوبر من عام 1619، خمسمائة وثمانية وسبعين أسيراً، واستولوا خلال عشر سنوات (1608 – 1618)، على مائتين وواحد وخمسين سفينة وسبعة ألاف وخمسة وثلاثين أسيراً من مختلف الجنسيات الأوربية [60]

وبقي عدد الأسرى المسيحيين مرتفعاً في مطلع القرن 18م، وهذا ما أكّده " لوجيي دوتاسي "، أحد معاصري تلك الفترة، حيث قال: " أن عدد الأسرى في الجزائر كان معتبرا مما قد يسمح لهم بالاستيلاء على المدن الجزائرية [61].

ويصف القنصل " شالر " حالة الأسرى بقوله: " إن الأسرى منذ النصف الثاني من القرن 18م، يعتبرون عبيداً للدولة، وأن سلطات الأيالة تحميهم من الأذى ومن سوء معاملة الأفراد، وأن حالتهم لم تكن أسوء من حالة أسرى الحرب الذين يقعون في بد إحدى الدول المسالمة المتحضّرة، وأن النساء الأسيرات كن يعاملن بالاحترام الذي يفرضه جنسهن .... " [62].

كما وصف " كاثكارت " معاناة الأسرى في السجون وسوء معاملة بعض الحراس لهم، فإن ذلك لا يتعدى حدود الطبيعة، أما حالة اليأس التي تصيب بعضهم فقد دفع بهم إلى محاولة الانتحار، وهذا يعود حسبه إلى حب الإنسان للحرية، وإلى عدم دفع دولهم فديتهم [63].

وابتداءاً من أواخر القرن 18م، عرف عدد الأسرى تراجعاً، وأصبح عددهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف أسير [64].

وإذا فسّرنا هذا التراجع، ويعود إلى التقهقر الذي عرفه الأسطول الجزائري، وإلى السيطرة التي فرضها الأسطول الأوربي، وأيضاً الطاعون الذي اجتاح الجزائر في اواخر القرن 18م، قد أودى بحياة عدد كبير من الأسرى، ولم يبق في سجون مدينة الجزائر، سوى خمسمائة أسير [65]. ومن أسباب التراجع أيضاً، قيام كل من جمهورية نابولي وإسبانيا بافتداء عدد من الأسرى [66]، إبرام الجزائر مجموعة من المعاهدات مع بعض الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية قد أدى إلى انخفاض عدد الأسرى.

أما في مطلع القرن 19م، عرف عدد الأسرى ارتفاعاً نسبياً، والسبب في ذلك، هو الانتعاش الذي عرفه الأسطول الجزائري بقيادة الرايس حميدو، كما أن انشغال أوربا بحروبها القارية خلال 1802 – 1815م، قد مكّن الجزائر من الاستيلاء على بعض سفنها، وأسر عدد من رعاياها [67].

المسيحيون الأحرار: عددهم ضئيل جداً، ويتمثلون عموماً في القناصل والتجار الأوربيون، وقلة عددهم يعود حسب " لوجيي دوتاسي " إلى وجود عدد كبير من اليهود الذين سيطروا على التجارة [68]، ولهذا فإن معظم المصادر لم تول اهتماماً لهذه الفئة فكان تركيزها منصباً على الأسرى. وتوافد الأوربيين على الجزائر حسب

اعتقادي كان مرتبطاً بالوضع العام في البحر المتوسط ، فكلما توترت العلاقات بين الجزائر ودول أوربا واشتدت أعمال القرصنة، أثّر ذلك على المبادلات التجارية، وقلل من حركة الأشخاص وتنقلهم. ويمكن أن نستثني من ذلك المراكز التجارية الفرنسية في الشرق الجزائري التي كان يوجد بها عدداً معتبراً من التجار والموظفين الإداريين. ولقد شكّل القناصل والوكلاء الأوربيون مجتمعاً خاصاً بهم، عاش في كنف التسامح الإسلامي حياة مليئة بالبذخ والسعادة والكرم، وهذا ما جعل " شالر " يعلق عليها قائلاً: " وإذا شاء القدر لشغل منصب غير المنصب الذي أشغله حالياً في الجزائر، فسأحزن مدى الحياة لفقد ما أجده من لطف الكرم وسحر العشرة الطبيعية [69].

كما سجلت سيدة أرستقراطية انجليزية اسمها " صوفيا برنارد " التي زارت الجزائر في سنة 1811، فبعدما أثنت على حسن سلوك الجزائريين و أدبهم في المعاملة، قالت: " إن سلوكهم مع الأجانب فهو يتسم بطيبة القلب وروح المجاملة إنهم كرماء الضيافة ... وباختصار فإن إقامتي في الجزائر كانت قصيرة ولكنها كانت مليئة بالمتعة، وأنا أعتقد أنه من المستحيل أن يجد المرء في أي مكان آخر في العالم لياقة وأدباً ورعاية مما يجده في الجزائر "[70]. وكان الدور الأساسي الذي يقوم به القناصل هو حماية المصالح البحرية وسلامة أساطيلهم في البحر الأبيض المتوسط، وحماية

رعايا دولهم وحماية المبادلات التجارية بين بلدانهم والجزائر. ولذلك يمكن اعتبار الدول البحرية الكبرى كانت دائمة التمثيل في الجزائر.

الخاتمة

نستنتج من خلال دراسة التراتبية الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني في ضوء المصادر الأوروبية ، أن المجتمع الجزائري كان مجتمعًا حضريًا متنوعًا ومركبًا، ضم فئات سكانية متعددة الأصول والانتماءات، غير أن هذا التنوع لم يكن مرادفًا للتفكك أو الصراع، بل أفرز منظومة اجتماعية اتسمت بدرجة معتبرة من التوازن والتكامل، حيث ارتبطت المكانة الاجتماعية بالوظيفة السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية أكثر من ارتباطها بالانتماء العرقي وحده. وقد احتل الأتراك العثمانيون قمة الهرم الاجتماعي بحكم سيطرتهم على مؤسسات الحكم، في حين اضطلعت الفئات الأخرى، كالكراغلة والحضر والبرانية والأندلسيين واليهود وغيرهم، بأدوار اقتصادية واجتماعية أسهمت في ازدهار المدينة واستقرارها.

كما أظهرت الدراسة أن الروايات الأوروبية، على الرغم من غناها بالمعلومات والتفاصيل المتعلقة بمكونات المجتمع الجزائري، قد تأثرت في كثير من الأحيان بخلفيات أصحابها السياسية والدينية والثقافية، وهو ما انعكس في تصنيفاتها العرقية وأحكامها المسبقة، وفي محاولاتها تفسير البنية الاجتماعية وفق مفاهيم أوروبية لا

تنسجم دائمًا مع خصوصية المجتمع الجزائري. لذلك، فإن الإفادة من هذه المصادر تظل رهينة بإخضاعها للنقد التاريخي ومقارنتها بالمصادر المحلية والعثمانية، بما يسمح بالتمييز بين المعطيات الموضوعية والانطباعات الذاتية.

وتؤكد هذه الدراسة أن مدينة الجزائر العثمانية لم تكن مجتمعًا طبقيًا بالمعنى الأوروبي، وإنما كانت فضاءً حضريًا عرف تعددًا اجتماعيًا وثقافيًا اندمجت فيه مختلف المكونات ضمن إطار سياسي وإداري حافظ على قدر من الاستقرار والتعايش. ومن ثم، فإن إعادة قراءة المصادر الأوروبية قراءة نقدية تسهم في تصحيح كثير من التصورات التقليدية حول المجتمع الجزائري في العهد العثماني، وتفتح آفاقًا جديدة للبحث في تاريخه الاجتماعي، بعيدًا عن الأحكام الاستشراقية والقراءات الاستعمارية، بما يعزز فهمًا أكثر دقة وموضوعية لتاريخ الجزائر الحديث.

الهوامش

1- Boutin, reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger, publié par. G Esquer, lib, ancienne, honore champion, paris, 1927, PP 72 – 73.

2- وليام، سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتعليق عبد القادر، زبادية، ش.و.ن.ت الجزائر 1980، ص 81.

3- وليام شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816 – 1824، تعريب وتعليق وتقديم، اسماعيل العربي، ش.و.ن.ت الجزائر 1982، ص 54.

4- نفسه ، ص 113.

5- Charl, André julien, histoire de l'algérie contenporaine, la conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871, PUF 1964, P7.

6- حمدان، بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، ط2، الجزائر: 1982، ص 51.

7- الأناظول: كلمة يونانية، تعني الشرق، اسم أطلقه البيزنطيون على آسيا الصغرى، وهي شبه جزيرة جبلية في غرب آسيا تشمل معظم الأراضي التركية وتحيط بها بحار إيجه ومرمرة والأسود ومضيقي البسفور والدردنيل ...

8- الروملي: هو القسم الأوربي للدولة العثمانية، ويشمل كافة مناطق البلقان.

9- Haedo, (F.D), « Topographie et histoire générale d'alger », trad de l'espagnole par mm Dr monnereau et A. berbrugger, in R.A (N 14), 1870 PP 496 – 499.

10- Ibid, P 499.

10- Moulay, belhamissi, marine et marins d'alger 1518-1830, BNA 1986, 3T, T1 P 116.

11- Haedo, (F.D) « Topographie … Op.Cit P105.

12- Boyer, (P) « Le problème kouloughli dans la régence d'alger » in R.O.M.M N° spécial, Aix 1970 P 81.

13- Venture de paradis, tunis et alger au 18e siècle, bib, arabe sindbad, paris 1983, P 181.

14- ناصر الدين، سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-1830)، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1972، ص 42.

15- Venture de paradis : OP, Cit P 23.

16- Raymond, (A), grandes villes arabes à l'époque ottomane . sindbad,. paris 1985, P, 71.

17- وليام شالر، المصدر السابق، ص 54.

18- حمدان، بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 111.

19- A.G.Dentu : l'histoire et les révolutions d alger, imprimerie – librairie de G.A Dentu, Prais 1838 P 10.

20- Laugier de tassy, OP, Cit, P 59.

21- جمع كرغلي: وهو مصطلح تركي مركب من كلمتين، كورو: بمعنى عبد، أوغلي: معناه: إبن، وبالتالي المعنى من الكلمتين هو إبن عبد.

22- ناصر الدين، سعيدوني، الجزائر في التاريخ/ الجزء الرابع: العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 94.

23- Boyer, (P) : « Le problème kouloughli …. » OP.Cit, P 80.

24- حنيفي، هلايلي: النظام الحربي للجزائر في العهد العثماني، أطروحة لنيل شهادة الدكتورة، سنة 2004، ص 100.

25- Emerit, (M) : « Les tribus Privilegiées en algérie dans la première moitié du 19 siècle », in annales éconnomiques sociètés civilisation, 21année Janvier, Février 1966. P 46.

26- Emerit, (M) : « Les tribus . « OP, Cit P 47.

27- ناصر الدين، سعيدوني: النظام المالي . ص 45.

28- محمد بن يوسق، الزياني، دليل الجيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي بوعدلي ش.و.ن.ت. الجزائر 1979، ص 31.

30- خير الدين: (1467 – 1546)، ولد في جزيرة لسبوس اليونانية، عرف لدى الأوربيين بباربروسا (ذو اللحية الحمراء)، استطاع، صد الجيش الإسباني الذي حاول احتلال الجزائر، وفي عام 1533 عينه السلطان العثماني، قائداً للأسطول العثماني ...

31- مجهول: غزوات عروج وخير الدين، تحقيق ونشر عبد القادر نور الدين، مطبعة ردوسي قدور، الجزائر 1934، ص 82.

32- وليام شالر، المصدر السابق، ص 83.

33- فون مالستان، هاينريتش: المصدر السابق، ج 1، ص 57.

34-Haedo, (FD) : OP, Cit P 491.

35-Duval (J), l'algérie tableau historique, descriptif et statistique, Hachette, paris 1859 PP 55-56.

36- Devoulx (A) tacherifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'alger imp, du gouvernement, Alger 1852 P 31.

37- Haedo (FD), OP, Cit, P 492.

38- فون مالنشان هلينريش: المصدر السابق، ج 1، ص 79.

39- إبراهيم، بحار: " الميزابيون بالجزائر في العهد العثماني " م.ت.م.ع: 89-90، تونس 1998، ص . بدون ترقيم.

40- وليام شالر، المصدر السابق، ص 111.

41- محمد، أمين: " ملاحظات حول سياسة التهميش ووضع المهمشين بولاية الجزائر العثمانية،" م.ت.ع.د.ع.ع. 25، زغوان، تونس 2002، ص 36.

-42 فون ماتسان، هاينريش، المصدر السابق، ج1، ص 77.

43- وليام شالر، المصدر السابق، ص 109-110.

44- عائشة غطاس، المقال السابق: ص 169.

45-نفسه ص 177

46- Haedo, (FD), OP. Cit PP 90-93.

47- Laugier, de tassy, histoire du royaume d'alger, H,de souzet,Amsterdam 1725, P 85

48-وليام شالر المصدر السابق ص 92 3-

49-Boyer (p) le probleme kouloughli….op.cit pp 166-167

50- Shuval, (T), la ville d'alger vers la fin du XVIII siècle, paris, CNRS ed, 1998, P 60.

51- Rozet (M) : voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupé par l'armée française en Afrique, A, Bertrand, lib, Iditeur, paris 1833, 3T, T3, P 84.

52- Haedo, (FD), OP, Cit P 90

53-محمد، (دادة)، اليهود في الجزائر في العهد العثماني، منذ مطلع القرن 18م حتى 1830، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحيدث المعاصر، دمشق 1985، ص 39.

54- Lucette, valensi : le maghreb avant la prise d'alger flammarion France 1969, P 27.

55- وليام شالر، المصدر السابق، ص 90.

56- Venture de paradis : OP, Cit, PP 108-109.

57- وليام شالر: المصدر السابق، ص 91.

58- Haedo (FD), OP, Cit P 490.

59- A.E.H, Ben mansour, OP,Cit, P 139.

60- IBID, P 135.

61- Laugier, de tassy; OP,Cit P 86..

62-وليام شالر، المصدر السابق، ص 99.

63- جيمس كاثكارت، مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق وتقديم، اسماعيل العربي، اجزائر ديوان المطبوعات الجامعية 1982، ص 110.

64- H, de grammont, histoire d'alger sous la domination turque 1515-1830, E, leroux, paris 1887, P 240.

65- Venture de paradis, OP, Cit, P 154.

66- IBID, P 154.

67- Albert, Devoulx : « Le registre des prises maritimes » in R.A N° 16, Alger 1872 PP 70-77 et 146-156.

68- Laugier, de tassy, OP, Cit, P85.

69- وليام شالر، المصدر السابق، ص 106.

70- اسماعيل العربي، " قصف الأسطول البريطاني للجزائر وأثره في الأدب الإنجليزي"، مجلة الثقافة، العدد 42، الجزائر 1978، ص 61 – 62.